obeikandl.com

الفصل الخامس

المسرح المعاصر
بين أزمة العصر وأزمة الفكر

obeikandl.com

إننا بعد استعراض فوضى العلاقة بين الله سبحانه والإنسان في الفكر المسرحي المعاصر ، نكون قد بلغنا نهاية المطاف في رحلتنا عبر مسارات هذا الفكر .. وشاهدنا بأم أعيننا ، بما هيء للمسرح من وسائل التجسيد والتركيز ، الفوضى الشاملة التي يعكسها هذا المسرح : فوضى تلف الكائنات والأشياء جميعاً بدوامتها الرهيبة القاسية التي إذا أخرج الإنسان يده فيها لم يكد يراها . فوضى تبدأ من أعمق أعماق الإنسان وتنتهي بالكون وخالق الكون . تبدأ بالإنسان فتمزقه ، وتصعد صوب العلاقات الاجتماعية فتدمرها ، ثم تلقي ظلالها على العالم والكون فتخيّل للناظر أن العبث يلفهما في طياته ، وتصل أخيراً إلى العلاقة بين الإنسان وخالقه فتسممها وتسفوها بالرماد ، علاقة خصام أبدي بين إرادة الله وإرادة الإنسان .. ولم نفعل – عبر هذا الاستعراض الطويل – سوى ان حللنا ، من وجهة نظر الغربيين أنفسهم ، وبموضوعية تامة ، ما

طرحه ويطرحه علينا المسرح المعاصر ، مستقطبين معطياته جميعاً بالمواقف الأربع التي عرضنا لها .

ولنا بعد هذا أن نتساءل : ترى هل ان ما يعكسه المسرح المعاصر عن هذه الامداء جميعاً ، لا يعدو فيه أن يكون مرآة صادقة لما هو (واقع) فعلاً ؟ هل ان كل ما يقوله لنا ويعرضه علينا هذا المسرح إنما هو محاكاة لا زيف فيها (للواقع) الإنساني والكوني كما هو في حقيقته ؟ وهل ان ما قاله المسرح المعاصر عن الإنسان والمجتمع والعالم ، وهي أمور يمكن رؤيتها من قريب ، يساوي في صدقه ما قاله عن الكون وعن القدر والحرية ، وهي أمور تنأى عن الحكم المباشر وتستعصي على الرؤية القريبة والتجربة الذاتية ، وتتمنع على إمكانات الإنسان الفكرية والحسّية والباطنية ؟ !

واضح ان التسليم بصحة كل ما قدمه لنا الفكر المسرحي المعاصر من معطيات ، أمرٌ لا ينسجم مع المنطق والواقع بحال من الأحوال . ولم يحدث في التاريخ الطويل ، ان قدم حشد كبير من الناس عديداً من الأفكار والرؤى التي ينقض بعضها بعضاً ، وينكث بعضها عرى البعض الآخر ، ويذهب بعضها يميناً بينما يتجه الآخر إلى أقصى اليسار . . لم يحدث ان كانت كل تلك المعطيات – على تناقضها – أمراً مسلماً به لا يقبل جدالاً . صحيح ان المسرح هو – كما بينا في البدء – مرآة

تنعكس عليها روح العصر بجلاء وصدق ووضوح . . وصحيح ان المسرح في معظمه لا زال يمارس وظيفته في الحدود التي عرفه بها أرسطو عندما قال انه (محاكاة) . . وصحيح أيضاً ان خشبة المسرح غدت معملاً للتحليل النفسي ، ومنصة للخطابة يصرخ من فوقها الإنسان ليخفف من عذابه وألمه الواقعين . . لكن هذا الانعكاس الصادق شيء ، والحكم على موضوعية التجارب التي يطرحها المسرح ، وإعطاءها صفة الشمول والتعميم ، شيء آخر .

إن المسرح يبقى في حدوده الطبيعية لو ان الكتاب عرضوا من خلاله تجاربهم الخاصة ، ورؤاهم الذاتية ، في إطار العصر الذي يحيون فيه . لكن ما ان تتحول هذه التجارب والرؤى إلى مذاهب عامة شاملة ، تسعى إلى إصدار أحكام قاطعة عن الكون والعالم والإنسان . . ما ان يحدث هذا حتى ينحرف المسرح عن أداء دوره الطبيعي إلى التبشير بدعاوى فردية تسعى إلى أن تكون مذاهب تلزم أفكار الآخرين واعتقاداتهم .

ان برندللو — مثلاً — يطرح مسألة تمزق الشخصية الإنسانية ، وهذا أمرٌ واقع ، في حضارة لم تتح للإنسان أن يتوحد ويلم شتات ذاته ، وهو في مسرحياته يضرب على الوتر الحساس الذي يطرب له ويرتاح كل الذين يعانون هذا التمزق وهذا التبعثر في داخل نفوسهم . إلا أن برندللو

لا يقف عند هذا الحد ، بل يتجاوزه بعيداً . . بعيداً حتى يصل إلى القول بأن الشخصية الإنسانية لا أساس لها من الواقع والحقيقة ، وانها ليست سوى وهم من الأوهام ؛ بل ان الوهم يغدو عنده – أحياناً – أكثر حقيقية من الشخصية الحقيقية ذاتها .

وتنسي وليامز – مثلاً – يطرح قضية الجنس كدافع من أشد الدوافع البشرية تأثيراً في التكوين النفسي للإنسان ، وفي علاقاته الاجتماعية وموقفه من العالم ؛ وهذا أمرٌ واقع في حضارة غدت التجربة الجنسية فيها تغطي مساحات واسعة جداً من الحياة ، وتصبغ عدداً ضخماً من الفاعليات . إلاّ أن وليامز لا يقف عند هذا الحد ، بل يتجاوزه بعيداً . . بعيداً إلى القول بأن العلاقات الإنسانية لا تبلغ حد الكمال إلاّ عن طريق ممارسة الجنس بحرية تامة ، وأن النفس الإنسانية لا تستوي على أصولها إلا بأن تزال من طريقها العقبات صوب الاشباع الجنسي .

وسلاكرو وألبي وآنوي وغيرهم ، يطرحون – مثلاً – مشكلة عزلة الإنسان وعدم قدرته على الاتصال بالآخرين ، وهو أمرٌ واقع في حضارة نصبت الأسلاك الشائكة ، وأقامت الجدران الصماء بين الإنسان والإنسان . . إلاّ أن هؤلاء لا يقفون عند هذا الحد ، بل يتجاوزونه بعيداً . . بعيداً حيث

لا أمل مطلقاً في لقاء الإنسان بأخيه الإنسان ، وحيث العزلة الأبدية التي لا محيص عنها ، والتي لن تستطيع أية وسيلة إخراج الإنسان من صحرائها الشاسعة : لغة كانت ، أم عادات ، أم مسلّمات . .

ورغم هذا وذاك ، فإن الخطأ الكبير لا يكمن في مواقف كهذه التي نراها لدى برندللو ووليامز وغيرهما ، لأنهما رغم تكريسهما جل أعمالهما المسرحية للتأكيد على وجهات نظرهما المتطرفة ، لم يبلغا بها حداً تغدو معه مذاهب ونظريات ومدارس فكرية ونسقاً منهجياً من البناء المنطقي يقوم على التعميم والشمول ، الأمر الذي نجده واضحاً لدى مسرحيين آخرين مثل كامي وسارتر والطليعيين . . هؤلاء الذين يريدون أن يفرضوا رؤاهم الذاتية ، وتجاربهم الخاصة ، وتفكيرهم الشخصي على الآخرين ، ويجعلون منها شخوصاً تنادي بمذاهب ونظريات لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . وليت الأمر يقف بهذه الطائفة من الكتاب المسرحيين عند حدود ما تستطيعه إمكاناتهم وتكوينهم البشري أن تصل إليه . . ليتهم قصروا حدود مذاهبهم ونظرياتهم هذه في نطاق الإنسان والعالم الذي يعيش فيه ، والعلاقات القائمة بين الطرفين . . إلاّ أنهم ــ لرغبتهم في التحيّز وميلهم إلى التطرف ــ تجاوزوا هذه الإطارات صوب قضية الكون وعلاقة الإنسان بالقوى التي لا تراها العيون ولا تدركها الأبصار . . وجاؤوا بمذاهب

ونظريات بلغ بعضها حداً مذهلاً من الاسراف والتمحّل . . ثم قالوا ان ما يرونه وما يصدرونه من أحكام عن الإنسان والكون وما وراء الطبيعة ان هي إلاّ مسلّمات يجب الأخذ بها دون نقاش . .

هنا يفقد المسرح أصالته وصدقه ووضوحه ، ويغدو مرآة زائفة لا تعكس ما هو واقع فعلاً وما هو حقيقي فعلاً من تجارب الناس ورؤاهم ، ولكنها تفرز خيالات سقيمة وأوهاماً لا تقوم على أساس . . وإلاّ فما الذي يعنيه كامي من أن العالم قائم على العبث وانه غير معقول . . الأمر الذي اندفع به الطليعيون خطوات أخرى إلى الأمام وبلغوا حداً غدا معه الكون لعبة لا مبرر لها ولا هدف ، وغدا معه الإنسان قطع شطرنج تحركها المصادفة اللاهية العمياء صوب مصائرها ، وتعبث بقتلها وتعذيبها ؟ ! وما الذي يعنيه سارتر من أن الإنسان هو الحرية ، وانه مشروع يصنع نفسه بنفسه ، وان عليه ألا يعترف بأي من المسلّمات المسبقة التي تحدّ من هذه الحرية ، وتضع عقباتها أمام هذا الطيش الذاتي ؟ !

إن كامي وسارتر والطليعيين ، وكثيرين غيرهم ممن مرّوا بنا ، يسعون إلى أن يجعلوا رؤاهم هذه مذاهب شاملة لتفسير الوجود الكوني والإنساني ، ولتحديد طبيعة العلاقة بين الإنسان وما وراء الطبيعة . . مذاهب ملزمة لا تتيح

obeikandi.com

للإنسان أن يرى رأياً آخر ، أو أن يلتزم هدفاً جديداً .. ومن ثم حادوا بالمسرح عن أصالته وصدقه ووظيفته الأساسية في تصوير الحياة والناس والعلائق والأشياء ، وجعلوه أشبه بالمؤسسات المدرسية لتوضيح وتثبيت معالم مذاهبهم تلك .. الأمر الذي نتج عنه أن بعض أعمال هؤلاء فقدت كثيراً من مقومات الانجاز الفني كالحركة والحيوية والغنائية والابتعاد – قدر الإمكان – عن التجريد الفكري الذي لا يعني في عالم الفن سوى الموت .

إننا يجب أن نكون حذرين إزاء تعميمات كهذه ، خاصة بعدما رأينا أن عدداً من كتــاب المسرح عانوا أزمات خاصة .. تجارب مؤثرة انغرزت في أعماق نفوسهم ، وعادوا ليطرحوا على المسرح ما خلفته في وجدانهم من أسى وعذاب ، وما تركته في فكرهم من صور وإيحاءات .. رأينا برندللو يلجأ إلى تقسيم الإنسان إلى شخصيتين : حقيقية ووهمية ، بعد أن أصيبت زوجته بالجنون من جراء غيرتها الدائمة عليه ، وشكها القاتل بمعاشرته غيرها وخيانته لها .. ورأينا تنسي وليامز يكرس مسرحياته لقضايا الجنس وتجاربه المختلفة ، بعد ما عانى من كبت جنسي كان له أبلغ الأثر في تكوينه النفسي .. ورأينا كامي يسعى إلى تصوير عبث الحياة ولاجدوى العالم ، وإلى التأكيد على خطورة معنى الموت على وجود الإنسان ، وانه ما دمنا سنموت فليس لأي

obeikandi.com

شيء معنى . . رأيناه يسعى إلى هذا كله بعد أن أصيب بالسل ، وأحاطه اليأس من الشفاء فترة طويلة . . ثم رأينا هنري دي مونترلان يردد في مسرحه فكرة النفي والاستبعاد والطرد بعد أن عانى في صدر شبابه من الوحدة والضياع وعدم الانتماء، وبعد أن مارس طويلاً تجربة المنفي من كل مكان . . ليس هذا فحسب ، بل اننا رأينا كذلك ، ان عدداً من الحركات المسرحية لم تكن سوى رد فعل لأوضاع فكرية وسياسية معينة : رأينا الطليعيين وهم يتمردون على دكتاتورية العقل التي فرضت نفسها على الفكر الأوربي ما يزيد عن القرنين ، فانطلقوا ليدكوا قيم هذا العقل دكاً ، ويرفضوا كل ما يقوم عليه ، وتطرفوا في انطلاقهم حتى انتهى بهم الأمر ، ليس إلى إلغاء معقولية الكون والعالم والحياة الإنسانية فحسب ، بل انهم لجؤوا إلى الكوابيس والأحلام ، بما هي تضاد للوعي العاقل ، وقالوا انها ربما كانت أكثر منطقية وثباتاً ودلالة على حياة الإنسانية ، من معطيات العقل الواعي نفسه . . كما رأينا مسرح الغضب وهو يعلن ردته وسخطه على ما تعانيه بريطانيا من هزيمة تتلوها هزيمة ، وفشل يتبعه فشل ، في حياتها السياسية والاجتماعية .

إننا يجب أن نضع هذا الأمر نصب أعيننا ، كيلا نفقد مسارنا الصحيح ونحن نتفحص مسالك الفكر المسرحي المعاصر . . ولا يذهبن أحد إلى الظن اننا ننفي بهذا دور التجربة الذاتية ،

obeikandl.com

والخلفية الاجتماعية أو الحضارية في العمل المسرحي . . فهذا لا يقوله عاقل ، لأن معطيات الفن ـ كما أكدنا في أول هذا البحث ـ ليست سوى تعبير ـ بشكل من الأشكال ـ عن هذه المعاناة الداخلية ، وانعكاس عن تلك الخلفية الاجتماعية الحضارية.لكن الذي نريدأن نقوله هنا هو أن تصميم مذاهب ونظريات لتعميمها على كل إنسان في كل مكان وزمان، بمجرد انها تنبثق عن تجربة إنسان ما ، أو فئة ما في شعب من الشعوب، هذا التصميم ، وهذه الهندسة اللاموضوعية للمذاهب والأفكار، هي التي نرفضها أشد الرفض ، ولا ندعها تنحرف بنا ـ ولو قليلاً ـ عن الصورة الحقيقية الواقعة للكون والعالم والإنسان والعلاقات القائمة بينها جميعاً . إن هذا الموقف يقودنا إلى السؤال الذي طرحناه من قبل : هل ان ما قاله المسرح المعاصر ، عن الإنسان والمجتمع والعالم ، وهي أمور يمكن رؤيتها من قريب ، يوازي في صدقه ما قاله عن الكون وعن طبيعة العلاقة بين الله والإنسان ، وهي أمور تنأى عن الحكم المباشر ، وتستعصي على الرؤية القريبة والتجربة الذاتية ؟ . . والجواب هو النفي ، بطبيعة الحال . . ذلك ان ما قدمه لنا المسرح المعاصر من صور حية عن الإنسان من الداخل ، وعن العالم الذي يضطرب في أنحائه ، فيه من الصدق والأصالة والحس العميق ، ما لا يمكن أن يقارن بما طرحه هذا المسرح من أفكار عن الكون والقدر والحرية .

في الأولى كان المسرحيون يقولون ويكتبون من خلال ما يرونه فعلاً ، وما يمكن أن يلمسوه ويندمجوا به وينظروا إليه من قريب . . كانوا يعرضون على الناس شخوصاً يجدها الإنسان منبثة في كل مكان في هذا العالم الذي غطته حضارة القرن العشرين . . وكانوا يصورون بدقة عجيبة ما يعانيه هذا الإنسان سواء في عالمه الباطني أم في علاقاته الاجتماعية ، من تمزق وعذاب وعزلة وقلق ورعب دائم ، وما يحيط به من جماعية تسعى إل الإحاطة بتفرده ، وآلية تطغى على وجوده الفردي رويداً رويداً ، فتكتسحه من على الأرض اكتساحاً لا رحمة فيه . . ومن خوف دائم على مصيره الذي غدا لعبة بيد حفنة من القادة والزعماء ، تملك من عوامل الاضطهاد والافناء ما يفوق الخيال .

أما في الثانية فإن الفكر المسرحي لم يستطع أن يقدم أبداً صورة أصيلة عن الكون وعن طبيعة العلاقة القائمة بين الله والانسان .. إن الكتاب المسرحيين ، هنا ، كحطاب ليل ، يقولون ويكتبون عن عالم لا يرونه أساساً ، ولا يتاح لهم أن يلمسوا أي جانب منه ، ولا أن يندمجوا فيه وينظروا إليه من قريب . . انهم هنا ينقلون خطاهم في ظلام دامس لا يملكون خلاله حيلة ولا يهتدون سبيلا . . وكيف يهتدون إلى سبيل ، وقد شاؤوا ان يأتوا ليتجولوا هنا ، بلا مصباح كاشف ينير لهم جوانبه المظلمة ، ويثبت أعينهم على صور حقيقية ؟ !

ومن ثم فإن كل ما طرحوه على المسرح من صور وقيم عن هذا العالم الواسع ، وعن علاقة الإنسان فيه بخالقه ، لم يكن سوى تخيل لا يقوم على أساس،ورؤى عمياء لا تملك الكشف عما يحيط بهذا العالم من أسرار وإمكانات . . وكل ما صوروه لم يعدُ أن يكون محاولات يائسة لأناس عادوا من رحلة الاكتشاف هذه ، مهيضي الجناح . . ولئلاّ يقال انهم أخفقوا ، أخذوا يطرحون على الناس ما لفقه خيالهم من أكاذيب وصور ليست في حقيقتها سوى انعكاسات مرضية لما يعانونه في داخل نفوسهم من حيرة وقلق واضطراب . .

ليس الأمر إذن سواء في معطيات المسرح الغربي المعاصر . . فبقدر ما كان هذا المسرح صادقاً وعميقاً ورائعاً لدى حركته في مدى الإنسان وعالمه ، بقدر ما كان كاذباً وتلفيقياً وبشعاً لدى تخبطه في امداء الكون والعلاقة بين الله والإنسان . في الأولى كان الكاتب المسرحي يعمل في المدى الذي تتيح له فيه طاقاته وإمكاناته البشرية ، وعبقريته ، ان يبدع وأن ينجز ما يستحق الإعجاب والخلود ، وفي الثانية كان الكاتب المسرحي يتخبط في المدى اللانهائي الذي لم يتح للإنسان ـ منفرداً ـ يوماً أن يصل إلى حقيقة من حقائقه ، أو أن ينقل صورة حقيقية من بنائه الفذ العجيب ، لأن إمكاناته تقف ـ أخيراً ـ عند حدود لا يمكن أن تتجاوزها إلى ما وراءها ، بما ركب في طبيعتها من طاقات وقدرات . وإذن ،

فإن علمنا عن هذا المدى الواسع ، وعن هذه العلاقة الكبرى بين الله والإنسان ، لن يتيسّر إلاّ بوسيلة خارجية .. بنور يأتي من فوق ، ينصبّ على طريق الإنسان من قلب السماوات ذاتها ، ومن مهندس الكون نفسه جلّت قدرته ..

وتصورنا للكون ، وللعلاقات القائمة بين خلائقه ، ولطبيعة الحوار بين إرادة الله وإرادة الإنسان ، هذا التصور لن يتحدّد بتخريف مخرّفين ، ولا برؤى مرضى تعكسها أوهامهم وآلامهم على صفحة الكون .. وإنما تحدّده تعاليم ومذاهب تأتي من الذي بيده إمكانية الرؤية الموضوعية الشاملة للملكوت ، وتتنزل من القوة التي هندست العلاقات بين الخلائق الكونية والإرادات المختلفة بإعجاز رائع .. تأتي يوم تأتي .. وتتنزل يوم تتنزل ، من خالق الملكوت وواهب الحياة للإنسان .. من الله سبحانه .. إن أزمة الفكر الغربي المعاصر التي يعكسها المسرح ، ما هي في حقيقتها سوى عدم قدرة الغربيين على التزام هذه المرتكزات الموضوعية – التي هي الدين – والتبصر من خلالها ووفق حقائقها الكبرى بالكون وبالعلاقات القائمة بين الله والإنسان .

وإذن، فيمكن القول – بصفة عامة – ان المسرح الغربي يعكس لنا بوضوح نوعين من (الأزمات) .. أولاهما أزمة عصر وأخراهما أزمة فكر .. عندما يستمد المسرح

معطياته من الإنسان المعاصر ذاته ، من آلامه وأشواقه ، من تمزقه ورعبه وقلقه ، من سعيه إلى الخلاص ، من تطلعه إلى الأفق الذي يرنو إليه وهو يتخبط في الظلمات .. وعندما يستمد المسرح معطياته من بنية العلاقات الاجتماعية التي يشهدها العالم المعاصر .. من الجماعية التي تطغى على تفرد الإنسان ، والآلية التي تكتسح الوجود الباطني ، والعزلة التي تقيم بين الإنسان والإنسان جدراناً صماء من الصمت والبعاد .. من الرعب الذي يسلطه على رقاب الناس حفنة من القادة الذين يملكون وسائل القتل والاضطهاد والتدمير التي لم يشهد التاريخ لها مثيلاً .. عندما يستمد المسرح معطياته من هذه الامداء المرئية ، القريبة ، التي لا تتأبى على نظرة الناظرين وتصور المتصورين .. عند ذلك نجد ان هذا المسرح يعبر عن (أزمة العصر) الذي تشهده حضارة القرن العشرين .

أما عندما يسعى المسرح إلى استمداد معطياته من مادة الكون البعيد ، ومن مصير الإنسان في هذا الكون ، ويتساءل عن مدى حرية الإنسان ومأساة قدره ، وعن طبيعة علاقاته بالقوى غير المنظورة ، فإنه يعبر عن (أزمة الفكر) الغربي ، الذي تلفه الحيرة ، ويملأ ضباب الشك والقلق كل سبله .. وتقف الجدران العالية بينه وبين الرؤية الحقيقية لما وراء إمكاناته الحسّية ، وتأملاته الباطنية ، وكدحه العقلي ..

وليس من المنطق ، ولا من الواقع ، أن نفصل بين

هاتين الأزمتين : أزمة العصر وأزمة الفكر لأن كلتيهما انعكاس للأخرى ، والتداخل بينهما دقيق معقد ، يصعب معه البحث عن الحدود التي تفصل إحداهما عن الأخرى . هذا فضلاً عن أن أياً منهما تعد سبباً ونتيجة – في الوقت نفسه – للأزمة الأخرى . فأزمة العصر بكل أبعادها الراهنة : فردية وجماعية ، ما هي إلاّ انعكاس لأزمة الفكر الغربي الراهن الذي لم يستطع صياغة حياته ، وتوجيه فاعلياته وفق (فكرة) و (تصور) سليمين متناسقين . كما أن أزمة الفكر ما هي في الحقيقة إلاّ انعكاس لما يعانيه الإنسان المعاصر – على النطاقين الفردي والجماعي – من قلق وضلال وحيرة وتخبط ، ومن آلام شتى وأوهام لا تحدها حدود، ومن آمال تتشبث بالخلاص وتطلب المستحيل عن الطريق الخاطىء والتصور المرتجل .

لا يمكن التفريق إذن بين أزمة العصر وأزمة الفكر ، وكل ما يمكن أن يقال ، لوضع معالم واضحة تفصل إحداهما عن الأخرى ، هو أن أزمة العصر أزمة حياة ، أزمة حركة ووجود وواقع ، أزمة تاريخ وحضارة يصنعها الإنسان بنفسه . . أما أزمة الفكر فهي أزمة تجريد ، أزمة سكون ، وتصور عقلي يسعى إلى فحص علل الكون ، وإلى برمجة حركة الإنسان في إطار مذاهب نظرية موجبة أو سالبة . ومن ثم فإن المسرح أكثر روعة وإعجازاً في تعبيره عن الأزمة الأولى : الإنسان والعالم ، لأنه – في هذه الحالة – يستمد

معطياته من الحياة والحركة والوجود والواقع والحضارة والتاريخ المعاصر . . بينما فقد المسرح الكثير الكثير من عناصر قوته الفنية ، وإمكاناته التعبيرية ، عندما سعى إلى التعبير عن الأزمة الثانية . ولكنه عاد – في هذا المجال – فاستعاد الكثير من فنّيته وتعبيريته لدى أولئك الكتاب الذين وقفوا من الكون والقدر موقفاً مأوساوياً ، وما أكثر الذين صدروا عن هذا الموقف ، فرأوا في الكون عبثاً ولهواً ، وفي الإنسان شخوصاً عاجزة ، مسكينة ، عزلاء ، تجابه قوى تفوقها بكثير . .

فليس لنا إذن أن نصدر حكماً جازماً على العمل المسرحي من ناحية فنيّة ، سواء استمد من الأزمة الأولى أم من الأزمة الثانية . ولكن الذي نسعى إليه – في هذا التفريق الذي قلنا انه يصعب من ناحية عملية – هو تقييم المعطيات المسرحية بشكل أكثر تأنّياً ووضوحاً ، ولنبدأ بالأزمة الأولى .

* * *

لقد أسهم عدد من كبار كتاب المسرح في أوربا وأمريكا في جعل المسرح المعاصر صورة مركزة ، عميقة الدلالة والإيحاء للعالم المعاصر الذي يضيع فيه الإنسان ، ويفقد تماسكه الذاتي ، وتسود الفوضى وحدته الشخصية ، فيحاصره التمزق والقلق والخوف : برندللو وهو يصور تهافت الشخصية الإنسانية وازدواجها . . سلاكرو وهو يعرض أبطالاً يفشلون في

إعادة توحدهم الذاتي .. آنوي وهو يطرح شخوصاً تعاني انقساماً خطيراً بين الواقع والمثال ، ويطحنها القلق من الأعماق.. ميللر وهو يصوّر الإنسان الذي يبحث عن البراءة والخلاص فلا يجدهما إلاّ بالانتحار أو الجنون .. هوايتنج وهو يعرض قدّيسيه الذين يحاصرهم الدنس ، ويمتص حياتهم ، ويسوقهم نحو عشق الفناء .. تنسي وليامز وهو يختار أبطاله من أولئك الحيارى والضائعين في دوامة الحياة الحديثة .. هارولد بنتر وهو يسعى إلى تصوير قطاع خاص من الحياة (الغربية) تحلل إنسانه من كل المبادىء والقيم والروابط .. مارسيل إيميه وهو يجسّد مأساة الإنسان في مجتمع تصطدم القيم فيه بصخور الأغراض الذاتية والشهوات .. ثم أوسبورن وهو يصرخ غاضباً معبراً عن غضبة الإنسان المعاصر المعذب الذي يعاني ضياعاً معنوياً وروحياً لم يسبق له مثيل .

وأسهم هؤلاء الكتاب أنفسهم في جعل المسرح المعاصر صورة مركزة ، عميقة الدلالة والإيحاء ، للفوضى التي تسود العلاقات الاجتماعية في العالم المعاصر ، وتدمّر على الإنسان أمنه وسعادته ومصيره : جايلز كوبر وهو يحمل على مادية الحضارة الحديثة ، وبهرجها وترفها المزيفين .. ميللر وهو يعبر عن قلق الإنسان إزاء عالم لا أمان فيه .. كارل جابيك وهو يسخر من الآلية التي تزحف على الحياة المعاصرة من أقطارها الأربع .. وليامز وهو ينعى الإنسان في مجتمع يسعى

إلى تدمير روح الفرد ويدفعها إلى الشقاء والانهيار .. يوجين يونسكو وهو يصور بشاعة العالم المعاصر ، وسخف العلاقات الاجتماعية ، وتفاهة النشاط البشري ، في إطار حضارة اقتبست من الآلية إيقاعها الممل ولغتها الجامدة العقيمة .. أوسبورن وهو يرفع صيحته ضد تحول الإنسان إلى ترس في الآلة الكبرى .. دوريس لسنج وادوارد البي وهما يكشفان عن مأساة العزلة التي يعاني منها الإنسان المعاصر حيث لا يتاح لأي منهم أن يلتقي بأخيه الإنسان ، أو أن يقول له ما يريد أن يقول ، بعد أن غدا كل منهم صحراء لا أصوات فيها ، وبعد أن عجزت الكلمات عن تأدية الدور الذي كانت تؤديه يوماً من الأيام .. تنسي وليامز وسلاكرو وهما يعودان ليسهما في تصوير مأساة العزلة هذه .. كامي وهو يصوّر هذه العزلة كما لو كانت قدراً مسلطاً على رقاب الناس ، ويسعى إلى تحويلها إلى فلسفة لا مفر — إلاّ للقلة — من أن يروا فيها المنطق بعينه .. يونسكو وهو يعود ليصب سخريته على (اللغة) التي فقدت وظيفتها وقدرتها على كسر الحصار وتفاهم الإنسان مع الإنسان .. صمويل بكت وهو يصور عادات السلوك التي تسهم في تعميق هذه العزلة لأنها فقدت كل مضامينها وغدت أشكالاً جوفاء خادعة .. آداموف وهو يعرض الناس وكأنهم وحدات مرصوصة إلى جوار بعضها دون تماسك بينها ولا حوار ..

ولم يغفل كتاب المسرح هؤلاء عن أمر آخر لا يقل خطورة في نشر الفوضى في العالم المعاصر عن الأمور السالفة ، ذلك هو الحرب والدمار والرعب والرغبة في الافناء : كرستوفر فراي وهو يسلط أضواءه على الإنسان الخائف المترقب ، في مجتمع مزقته حربان عالميتان ، وما زال ينتظر الثالثة . . مارسيل إيميه وهو يطرح شخوصاً منحلي الأخلاق في عالم طحنت الحرب كل سعادته وإحساساته الأصيلة بالعدل والجمال . . سارتر وهو يقدم أبطالاً يبحثون عن حريتهم في عالم فقد حريته شرقاً وغرباً . . يونسكو وهو يرسم ملامح العصر الذري الذي لم يدانه عصر ، فيما شهد من حروب وويلات ، وما يشهده من أحقاد واضطهادات . . ديرنمات وهو يصور بسخريته اللاذعة ، عالماً مقلوباً ، عالماً ينتزع أمنه وسلامه من قلب القنبلة الذرية البارد المخيف ! ! . . ثم أوسبورن وهو يطلق صيحاته الغاضبة ضد الامبراطورية العجوز ، ويسخر منها وهي في نزعها الأخير . .

كان المسرح المعاصر رائعاً وواقعياً في عرض وتصوير ومحاكاة وتركيز أزمات العصر الراهن بشتى أبعادها . وعندما نقول (الواقعية) لا نعني بها ـ بطبيعة الحال ـ الواقعية الاصطلاحية Realism ، وهي مـــذهب من المذاهب الفنية والأدبية يلزم الآداب والفنون بتصوير الواقع المباشر القريب ،

إنما نعني بها الواقعية الشاملة التي تضمّ بين جوانحها كل تجارب الإنسان الباطنية وعلاقاته الخارجية ، سواء أكانت هذه التجارب وتلك العلاقات أموراً قريبة أم بعيدة ، مباشرة أم غير مباشرة ، مرئية أم مغيّبة عن الأنظار . . وقد تمكن هذا المسرح فعلاً – بما تهيأ له من إمكانيات – من تجسيد مدى قسوة الفوضى التي تلف الإنسان وعالمه وعلاقاته بدوامتها الرهيبة التي تجرف في طريقها كل ما تبقى من قيم وآمال ، وتطحن في أعماقها أشواق الإنسان وثمار سعيه وكدحه .

والمسرح الغربي – بدوره السلبي في التعبير عن أزمة العصر ، دون طرح حلول عملية أو فكرية لها – لم يخل – فضلاً عما يقدمه من متع فنية لا حدود لها – من منافع للبشرية ، لأنه أخذ يفتح أعينها ويبصّرها بالمصير الذي هي مقبلة تغذ الخطى إليه . ان المسرح بهذه الصفة لا يعدو أن يكون صرخة احتجاج . . انذاراً عنيفاً . . إشارة خطر على الطريق الذي تسلكه الحضارة الغربية ، والمسالك التي تنتهجها في شتى فاعلياتها . وقد تمكن المسرح – فعلاً – من إيجاد وعي واسع النطاق بهذا المصير ، وبهذه الفوضى التي تلف الحياة والأحياء . . إن هذا يمهد الطريق ولا ريب إلى خطوة أخرى مقبلة يمكن أن يخطوها المسرح – في تعبيره عن أزمة العصر – صوب الإيجابية ، وطرح الحلول ، ووضع المعالم على الطريق . . بشكل يتيح للبشرية ، أفراداً وجماعات ،

obeikandl.com

تحطيم الحصار والخروج من الفوضى إلى عالم واضح المعالم ، وطريق مستقيم الاتجاه .

وقد ظهرت خلال هذا القرن ـ فعلاً ـ بعض الأعمال المسرحية التي سعت إلى تسليط أضوائها الكاشفة على الطريق الذي يجب أن تسلكه البشرية إذا ما أرادت الخلاص من المصير الذي ينتظرها في نهاية الطريق : برناردشو في بريطانيا ، جابريل مارسيل في فرنسا ، واليخاندرو كاسونا في اسبانيا[1] ـ على سبيل المثال ـ إلا أن هذه الأعمال لا تعدو أن تكون قطرة في يم السيل الجارف من المسرحيات التي وقفت عند حدود الجانب السلبي من التعبير عن أزمة العصر الحديث ، الأمر الذي حتم استبعادها من نطاق هذه الدراسة التي تسعى إلى استقطاب الخطوط والمعالم الرئيسية في المسرح الغربي المعاصر .

●●●

نجيء بعد هذا إلى (أزمة الفكر) التي قلنا انها تتمثل في موقف المسرح المعاصر من الكون ومن مشكلة القدر والحرية . . أي من العلاقة القائمة بين الله والإنسان . . فماذا نرى ؟ ! إنساناً يقف حائراً مشدوهاً في كون غامض لا نهائي ، تسوده الفوضى ، ويسيّره عبث لاه . . كون لا يقدّر أشواق الإنسان ، ولا يعطي معنى ولاً هدفاً لمصيره البعيد . . ومن

---

(١) انظر بحث (القيم الإيمانية في مسرحية مركب بلا صياد لكاسونا) المؤلف : مجلة حضارة الإسلام ، السنة العاشرة ، العدد الثاني .

ثم ينطلق الصراخ الإنساني في وجه الفوضى والغموض الذي يلف الكون والذي يحيل الحياة الإنسانية على الأرض إلى عبث وسخف لا حد لهما ، وإلى كدح لامعقول يبذله الإنسان طيلة حياته دون جدوى . .

جل الكتّاب المسرحيين أجمعوا على هذه الفوضى وهذا العبث وهذه اللامعقولية التي تتحكم في بنية الكون ، وتحديد مصائر خلائقه ، وعلاقاتهم الغامضة التي لا يمكن إدراكها : كامي وهو يطرح على خشبة مسرحه أبطالاً مفعمين بالحسّ العبثي إزاء عالم غير معقول لا يقوم على أي أساس من المنطق .. عالم بلا هدف ولا مصير معلوم ، علاقته بالإنسان علاقة مجنونة ، مترعة بالغموض والفوضى . . إن الناس يولدون ثم ما يلبثوا أن يموتوا، وهم ليسوا سعداء .. لمـــاذا ؟ . . سلاكرو وهو يرفض الاعتقاد ، بصفة نهائية ، إلاّ باللامعقولية المخيفة لدنيا فوضوية وآلية في نفس الوقت ، ويطلق حسرته لعدم وجود قيم أخلاقية تسود عالماً مثالياً سعيداً . . هارولد بنتر وهو يضرب على نفس الوتر ، ويسمع قراءه ومشاهديه نفس النغمة : عالم يحيطه المجهول ، مليء بالظواهر الغريبة التي لا يمكن تفسيرها ، باللامعقول الذي لا يتفق والعقل والمنطق ، وبالعبث . . ديرنمات وهو يحاول أن يعقد صداقة ما ، بين أبطاله وبين العالم الغريب المحيط بهم جميعاً . . ولكن يظل العالم غريباً ، لا شكل له .. بيتر فايس وهو يتوسل

إلى الإنسان أن يتخذ موقفاً جاداً إزاء هذا العالم المجنون الذي تسيطر عليه الصدفة .. يتوسل إليه أن يقف عارياً وصادقاً وسط جنون العالم لعله يصل إلى جواب .. ثم كتاب المسرح الطليعي : يونسكو وبكت وآدموف وجينيه وهم يهبون مسرحهم للتعبير عن رؤياهم لعبث الكون ولا معقوليته .. وللنواح على مصير الإنسان في هذا الكون ، وهم يسعون إلى تشكيل مدرسة أو مذهب ، ينبثق عن هذه الفلسفة !! ويقوم على القواعد والمعطيات التي يتفق عليها هؤلاء الكتاب جميعاً .. عالم تحطمت فيه حدود الزمان والمكان .. تكسّرت ساعاته ، وفقدت أمداؤه صلابتها وتماسكها .. عالم يتحرك فوقه الناس متشبثين بلغة لا دور لها ، وعادات وتقاليد فقدت جدواها ، ومواضعات ومسلّمات لا يعرفون هم أنفسهم من أين جاءت ، ومن الذي وضعها للناس ؛ عالم يسحقه إحساسان أحدهما بالزوال والآخر بالاكتظاظ والاختناق .. عالم يتكشف — حيناً — كخيال موهوم بعيد عن الاحتمال والتصديق وحيناً آخر وقد أفعمته المادة وفاضت فيه حتى شغلت كل ركن فيه ، ومحت كل حرية تحت وطأة عبثها المبهظ .. عالم انكمش أفقه وغدا قبواً خانقاً .. عالم يبدو فيه الموت واقعة فظيعة تثير الرعب لأنها تجعل كل الحياة التي سبقتها عبثاً وسخفاً .. وتغدو الأحلام والكوابيس أصدق تعبيراً عن الكون ، من اليقظة والانتباه والوعي .. الأحلام حيث تتحطم

عناصر الزمان والمكان ووحدة الشخصيات وتماسكها ، والكوابيس حيث التركيز القاسي للخوف والرعب والارتعاد ، وحيث يركض الإنسان صوب خلاصه دون جدوى ، وحيث يصرخ مستغيثاً دونما مجيب .. عالم يفقد فيه الطليعيون أيما أمل في التصالح مع الكون ، في البحث عن قواعد معقولة ، في إيجاد مرتكزات منطقية يثبت الإنسان عليها أقدامه ، عبر حركته وتنقله من مكان إلى مكان ، ومن زمان إلى زمان .. في الكشف عن جانب من جوانب المصير الإنساني في كون تلفّه دوامة رهيبة من الغبش والضباب ! ! .. عالم يجد الإنسان نفسه فيه مضطراً للبحث في داخل نفسه عما يضيء له حقيقة نفسه ، لأن الكون أبكم أعمى ، لا ينطق ولا يبين ، ولا يدري من أمره شيئاً ! !

ومن خلال هذه الفوضى التي يصدر عنها كتاب المسرح المعاصر ، والتي يرونها تأخذ بخناق الكون ، قدموا أجوبتهم المحزنة عن كثير من الأسئلة التي تطرح في موضوع كهذا : الهدف من خلق الكون ، المصير الذي سيؤول إليه ، العلاقة القائمة بين الإنسان والكون الذي يضطرب فيه ، الحكمة العليا من تشكيل الكون بهذا الشكل ، ومن وضع الإنسان فيه بهذا الوضع .. أجوبة حزينة سالبة يضمها إطار واحد هو العبث واللامعقول .

ونحن هنا لن نناقش هذا الغثاء الفكري ، وهذه الأعراض

المرضية لعصر طغت الفوضى على كل جوانبه ، وساد التمزق والتهافت كل معطياته وفلسفاته ومعتقداته . . وهل من سبيل إلى مناقشة هذا الغثاء . . هذا السخف الذي لا حدود له . . وهذه الرؤية الشاذة ، المفجعة للكون ؟ ! هل من سبيل إلى ذلك ، ونحن نرى رؤية العين ، وبوضوح مركز ، بالنور الذي بين أيدينا ، والذي تنزل علينا من السماء أدياناً عظيمة ومعتقدات لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . . نرى المنطق الإلهي المعجز الذي يكمن في بنية الكون ، ويسوقه ـ بخلائقه جميعاً ـ إلى مصيره المقدر المرسوم . . نرى النظام المتماسك الفذ الذي يلم أقطار السماوات والأرض في إطار من الجدوى والأمل ، وفي تناغم مذهل بين خلائقه جميعاً . . نرى أنه ما دام الكون على هذه الدرجة من التماسك المادي ـ كما أثبت العلم وكما تراه العيون وتبصره الأفئدة ـ لم يصطدم يوماً جرم بجرم ، ولا انحرف عن مساره يوماً نجم في أعالي السماوات وضلّ طريقه المرسوم . . ولا فقدت القوانين العليّة سيطرتها وضبطها يوماً ، وعصت أمر مهندسها العظيم . . ولا أتيح للفوضى ـ يوماً ـ أن تنشر أجنحتها على نظام الكون ، وتدخله دوامتها الرهيبة ؟ ! وأي عاقل يقول يوماً إن الصدفة العمياء هي التي هيأت للإنسان في الأرض ظروف الحياة المعجزة ، المرتبط بعضها ببعض ، بشكل معقد شديد التعقيد . . ظروف الحياة بكل ما تحمله

هذه الكلمة من معنى .. بينما لا يتهيأ من هذه (الظروف) مقدار ضئيل .. في جرم هو على بعد خطوات من الأرض التي يضطرب الناس عليها ؟ !

ما دام الكون على هذه الدرجة من التماسك المادي ، فما الذي يجعله يفقد نظامه وتماسكه وإعجازه على المستوى الروحي أو الغيبي ؟ ! إن نعامة أغمضت عينيها ودفنت رأسها في الرمال لا يمكن أن تحدثنا يوماً ، وهي في صميم رعبها وانتظار فنائها ، عن جمال الطبيعة الذي يحيط بها .. عن الحكمة التي تخلق هذا الجمال .. بل لا يمكن أن تحدثنا حتى عن الجهة التي تشرق منها الشمس والجهة التي تغيب فيها .. ان الفكر الأوربي ، الذي يعاني الرعب والانهزام الروحي ، وينتظر فناء الإنسان لحظة بعد أخرى ، هو كالنعامة تماماً .. أغمض عينيه ، ودفن رأسه في الرمال .. فكيف يتأتى له — من ثم — ان يرى ما في الكون البعيد البعيد من معقولية وجدوى ونظام ، وما في العالم الواسع المعقد من إرادة علوية شاملة تضبط حركته ، وترسم مصيره النهائي ؟ ! إن الإنسان المريض ، المرهق ، المكدود متهافت الأعصاب ، لا يمكن بحال أن يعطينا صورة موضوعية صادقة عن الكون الذي يضطرب فيه ، لا يمكن الا أن يفرز أعراض مرضه وإرهاقه وتهافته على صفحة هذا الكون . تلك سنة الحياة والوجود : لا يُطلب الدواء من المرضى ، ولا البصر من العمى ، ولا النور من الظلمات ! !

obeikandi.com

والإنسان الغربي هو هذا المريض المرهق المكدود متهافت الأعصاب ، الذي لا يمكن الا ّ أن يفرز على صفحة الكون مرضه الروحي ، وتهافته الذاتي . . هذا الذي قصدنا عندما قلنا ان أزمة الفكر التي يعكسها المسرح ما هي إلا ّ نتيجة – فضلاً عن كونها سبباً – لأزمة العصر الراهن الذي تشهده حضارةالقرنالعشرين،حيث يزداد المرض والإرهاق والتهافت يوماً بعد يوم مما يمكن أن نراه بوضوح على خشبة المسرح في أي مكان وضعنا فيه خطانا من العالم الغربي الراهن .

ليس لنا هنا إذن أن نناقش هذا الغثاء . . ولكن أن نعرف مصدره . . وقد عرفنا مصدره فعلاً : إنسان مكدود ، روحه مريضة ، أعصابه متهافتة ، ذاته مشتتة ، كيانه ممزق . . يتحرك على أرضية حضارة تسفي رمالها البصائر ،وتغرق لذاتها ومغرياتها مطامح الفكر والروح،ويطمس يمها الصاخب على خطرات الفؤاد .

وأخيراً يجيء دور الأدوار . . الموقف الذي تتبين من خلاله ماهية العلاقة التي تربط الإنسان بالله ، وبالقوى المغيبة التي تنأى عن الأبصار ، وتمارس دورها من وراء ستار الطبيعة المباشر القريب . . أخيراً يجيء الدور الذي انبثق عنه المسرح الغربي أول مرة ، وأخرج للناس أولى التراجيديات الكبرى ، واستمر – من ثم – يصدر عن معينه الكبير عبر العصور المختلفة . . حتى إذا انتهى المطاف به في العصر الحاضر ،

لم يفقد دلالته وإيحاءه العميق ، على العكس ازداد دلالة وإيحاءاً وغدا المعين الأول الذي تنبثق عنه معظم الأعمال المسرحية . ولقد رأينا هذه الحقيقة فعلاً لدى استعراضنا للفوضى التي يراها المسرح المعاصر تلم بأطراف العلاقة بين الإنسان وخالق الإنسان ، وتصور قدره عاصفة هوجاء تتقاذف مصائر الناس يميناً وشمالاً . .

ولقد رأينا – عبر هذا الاستعراض – كيف أثرت طبيعة أوربا وتكوينها الجغرافي المادي والبشري ، على تصور العلاقة بين الإنسان والقوى الغيبية ، وكيف أقامتها على قواعد من الصراع والعداء والحقد الذي لا ينضب له معين . . وكيف ان أشد المسرحيين إنكاراً لوجود الله في العصر الحديث ، لم يخل مسرحهم من هذا الإيحاء المسيطر على عصب الأوربي وذهنه ووجدانه : ان هناك قوة لا تراها العيون هي التي تحدّد مصائر الناس وتعبث بوجودهم ، سواء أكانت تلك القوة روحية غيبية ، أم طبيعية اجتماعية ، أم مادية جبرية .

إزاء قدر الإنسان وحريته انقسم كتاب المسرح طوائف ثلاث : طائفة رأت ان الإنسان لا حرية له ، وان مصيره مصنوع سلفاً ، وان صراعه مع القوى التي لا يراها ، من أجل أن يحصل على الحرية ، يبوء دائماً بالفشل المرير . . وهذه القوى التي لا ترى تتمركز عند هؤلاء الكتاب (سلاكرو وكوكتو ومترلنك وكامي وآداموف) بتلك التي تنسج مصائر

الناس من وراء ستار الطبيعة الذي لن يتاح للإنسان معرفة ما وراءه . . قوى غامضة مجهولة بعيدة نائية ، يرون فيها الله تارة ، وعالم الأرواح والخفاء تارة أخرى ، والصدفة العمياء تارة ثالثة . وربما رأوا فيها – كما كان الحال لدى أجدادهم اليونان – مجموعة آلهة يحلو لها العبث بمقدرات الناس ومصائرهم .

أما الطائفة الثانية : يونيل ، آنوي ، دي مونترلان ، ميللر . . فترى أن القدر ليس أبداً تلك القوى الفوقية التي تنصب على الإنسان من خارج ذاته . . ولكنه قدر ينبع من داخل ذواتنا ، ومن أعماق نفوسنا ، من عاداتنا وتقاليدنا ونسيج حياتنا اليومي وماضينا . . ان ابطال هذه المجموعة من الكتاب أشبه بالمأسورين ، يأسرهم ماضيهم ، وتأسرهم تجاربهم ، وبيئتهم ، ونقوطهم الوراثية . . ولا خلاص للبطل ، ولا جدوى وراء سعيه من أجل الحرية .

وأما الطائفة الثالثة ، وعلى رأسها سارتر ، فتقف موقف الرفض التام من القدر ، أياً كان هذا القدر فوقياً أم باطنياً ، غيبياً أم واقعياً ، يتنزل من السماء أم ينبثق من الأرض . . وتؤكد على حرية الإنسان في تشكيل مصيره وصنع قدره الـذاتي . . ولكنا نلمح ، من وراء هذا الإصرار على الحرية ، وهذا التشبث برفض القدر ، مواقف شعورية مليئة بالحنق والتمرد ضد قوى غير مرئية تسعى إلى أن تكبّل الإنسان ،

ويسعى هذا إلى أن يتخلّص من اسارها . . ان الإنسان لا يثور ضد لا شيء . . وان حنقه هذا ينصبّ ولا ريب على تلك القوى . . وهو حنق ينبثق من ذات الشعور الذي يطبع نفسية الإنسان الغربي في موقفه من القوى التي لا تراها العيون . . ذلك الشعور الخانق الذي مارسه أجداده اليونان .

هذا هو موقف الإنسان الغربي من القدر ، الجانب الثاني لأزمته الفكرية ، ابتداء من سلاكرو حيث الجبرية المطلقة ، وحتى سارتر حيث الحرية المطلقة . . يصدر الجميع – على ما بينهم من تفاوت عميق – عن موقف واحد ، ويتحركون على أرضية واحدة يمكن تلخيصها بأنها : الصراع مع القوى المحيطة بالإنسان ومع العالم الذي يضطرب فيه . . ان القدر الذي تصبّ فيه هذه القوى جميعاً هو عدو لدود للإنسان يسعى إلى سحقه ، ويهدف إلى دماره ، لا لشيء إلا لأنه يمتلك من أسباب القوى ما يستطيع به ان يتحدى الإنسان الضعيف العاجز ، المجرد من السلاح . . ومن ثم تختلف مواقف الغربيين إزاء الغشم المسلط على رقاب الناس . . فمنهم من أعلن استسلامه المطلق وحنى رأسه لمعاول القدر تنزل فتهشمها تهشيماً لا يرحم ،وتفصمها عن مطامحها بقسوة لا مثيل لها ، ومنهم من حاول أن يبحث عن أسباب هذا الغشم في داخل الإنسان ، في عالمه الباطني ، وفي الأرض التي يتحرك عليها . . وآخرون دفعهم هذا الأمر المريع إلى أن يتمردوا

obeikandi.com

على القدر ، ان يلغوه من حسابهم إلغاءاً ، وان يعلنوا — من جهتهم — حرية الإنسان ، وقدرته الذاتية على الوصول إلى مصيره دونما خوف أو إرهاب ينصب عليه من فوق أو من أعماق ذاته .

إن هذه النظرة العدائية وهذا الموقف الذي يقوم على الصراع والتقاتل بين الطرفين ، هي كما قلنا من قبل ، نتاج تصوّر منقوش في ذهن الأوربي ، وحسّ مطبوع في أعصابه ودمه ووجدانه ، منذ عصور أجداده اليونان الذين أرسوا الدعائم الأولى لهذا الموقف المحزن بين الإنسان وقدره . ومن ثم فليس لنا إلاّ أن نعتقد بأن الفوضى القديمة في تصور الإنسان الغربي للقدر ، عادت من جديد في المسرح المعاصر أشد وأنكى .. مواقف عديدة ، ورؤى شتى تحمل جميعاً طابع الانغلاق على العالم والكون ، والكراهية العميقة للقوى التي لا تراها العيون .. وتسعى جميعاً إلى تعميق الأوهام التي علقت في ذهن الغربي ووجدانه ، وصورت له الكون مسرحاً لآلهة تحرقها شهوة الانتقام ، وتدفعها الأنانية إلى أن ترفع سلاحها القاهر في وجه الإنسان المنكود .

هل ثمة مجال — في تصور الغربيين — لأن يلتقي قدر الله وإرادة الإنسان ، في انسجام وتوافق ، من أجل أن تكون خطوات الإنسان أكثر ثباتاً ، ونظراته أشد سداداً ؟ هل ثمة

مجال – في حسّ الغربيين – لأن يمدّ الله سبحانه يده إلى الإنسان في ساعات يأسه وتخبطه وحيرته ، فيرفعه إلى آفاق الأمل ، ويبصّره بالطريق الذي يجب أن يسلكه صوب مصيره ؟ هل ثمة مجال – في تصور الغربيين وحسّهم – لأن يكون القدر صديقاً حميماً للإنسان ، لا عدواً لدوداً له ، صديقاً يسير معه جنباً إلى جنب ، يهديه إذا ضلّ ، ويقوّمه إذا سقط ، ويسرع به إذا أبطأته أحداث الزمن وكبلت خطاه عقبات الطريق ؟ هل ثمة مجال – في عقيدة الغربيين – في أن يروا ان الإنسان أكرم عند الله من أن تقف حريته ، حائرة ضالة ، إزاء ما يحيط به من قيود الطبيعة والبيئة التي تطوقه ، وأن بمقدورها أن تكسر هذا الحصار ، وان تشكل مستقبلها ومصيرها بمجرد أن يحسّ الإنسان بكرامته وبأن هناك قوى أكبر وأقدر من الطبيعة والبيئة تسنده من فوق ، ومن أعماق ذاته ؟ هل ثمة إمكان – في قدرة الغربيين – على أن يكونوا أكثر حكمة في رؤياهم لدورة الحياة الدنيا ، ورحلة الإنسان في مسرحها ، تلك التي يطويها الزمن بالموت .. رؤية تتميز بالصبر والتحكم والاستشراف الذي يتطلع إلى النهايات البعيدة ، ولا يقف عاجزاً مشلولاً ، أو فرحاً طاغياً ، عند تلك اللحظات الكثيفة التي تنصبّ فيها الفواجع كالدخان الذي يحجب ويمحو كل شيء ، أو يتنزل الفرح ، كصفاء السماء ، حيث لا غيوم ولا أكدار .. لأن وقوفه ذاك عند

ساعات الهزيمة والانتصار ، سيصده عن النظر إلى أبعد ، واستشراف ما وراء الأفراح والأحزان ، وإدراك المدى البعيد لمقدرات الناس الخفية المتشابكة التي لا يمكن بحال أن يحكم عليها إنسان ما من موقف حزن غامر سينجلي ، أو فرح طاغ ستكتسحه مرارة الأحزان القادمة .. ولأن الإنسان ، إذا أصدر حكمه من مواقفه المتغيرة تلك ظلم نفسه وجهل النواميس التي تجري بموجبها السنن والأقدار ؟ هل ثمة — في طاقة الغربيين الذين اعتادوا (السرعة) و (الاختزال) و (العملية) — أن ينفذوا إلى معاني آيات قرآنية عميقة كهذه ، ويتمثلوها : (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبّوا شيئاً وهو شر لكم ! ! والله يعلم وأنتم لا تعلمون) و (لكي لا تحزنوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) ؟

لو استطاع الإنسان ، يقول المسرحي العربي توفيق الحكيم « ان يشمل بنظراته الأمس واليوم والغد ، وأن يتتبع حادثاً واحداً أو رجلاً بعينه ، لرأى العجب ! ! .. يأتي المال من العدم ويذهب المال في العدم ، ويولد من السعد نحسٌ ومن النحس سعد ا ساقية لا تكف عن الدوران . ليس هناك في حقيقة الأمر حظ زاهر ولا عاثر ، لأن الساقية الدوّارة لا تبقي أحداً في موضعه ولا شيئاً في مكانه ! ان ما نسميه (الحظ) ليس إلاّ وقوف نظرنا المحدود على وضع من الأوضاع في وقت من الأوقات ، وان فرحنا أو بكاءنا لهذا

الحظ ليس سوى قلة صبرنا على انتظار البقية . شأننا في ذلك شأن المشاهد لقصة تمثيلية ! انه يضحك ويبكي لكل ما يصيب البطل ، دون أن ينتظر ختام الرواية .. لعل أداة الشعور والإدراك فينا ، قد جعلت على هذا التركيب المناسب لحياتنا القصيرة ، فنحن نأخذ كل حادث يمر على انه البداية والنهاية ، لا أنه الحلقة في سلسلة طويلة .. ان الإنسان الذي أعطي الحكمة ، ليس في حقيقة الأمر إلاّ ذلك الذي أعطي العين التي ترى الأشياء في جملتها لا في شيء منها،وفي تعاقبها لا في وقوفها ، وتبصر الساقية في دورانها .. هي التي ترى الحقيقة الكاملة ! ! »[٢] .

هل ثمة مجال – في تصوّر الغربيين – لأن يقف الإنسان موقف المتبصّر بما يحيط به من قوى مرئية وغير مرئية ، وان يسعى إلى إدراك النسيج المعقد المتشابك لهذا الكون بما فيه من خلائق ترتبط مصائرها وتتوحد في المدى البعيد ، وأن يعمل جاهداً على توجيه حريته وقدره لكي تكون منسجمة – في المدى القريب والبعيد – مع حريات الآخرين وأقدارهم ، وان يكافح لأن يكون مصيره متوحداً تماماً مع تجربة حياته على الأرض ، بدلاً من أن يعلن تمرده الأعشى ضد هذه القوى ، ويدعو إلى حرية لا يمكن أن تتحقق في المدى الشامل

(٢) فن الأدب ص ٨١ – ٨٢ .

البعيد ، لأن الإنسان لا يمكن أن يخرج عن نسيج الكون وارتباطاته التي لا بدء لها ولا انتهاء ؟ ؟

أبداً .. أبداً .. لا يمكن أن يتصور الغربيون ، أو يعتقدوا ، أو يحسّوا ، يوماً ، غير ما أحسّه آباؤهم وأجدادهم من قديم ، ولا أن يروا غير ما رأوه : فوضى تعم السماوات والأرض وعداء لا تنطفىء ناره بين الغيب والحضور ، وناراً لا تكفّ سخائمها تؤجج الأحقاد بين بني الإنسان وبين القوى (الأخرى) التي تسعى إلى الإيقاع بهم ! ! إلى محق سعادتهم وهنائهم ، وإلى الوقوف بقسوة لا ترحم في دروب أهدافهم ومصائرهم ..

تلك هي رؤى الغربيين .. فحصناها واحدة، واحدة ، وعرفنا ما في كل منها من رصيد مشترك للتراث القديم الذي حمّل الأوربي هذه النظرة المأساوية للعلاقات بين قوى الكون وخلائقه وبين الإنسان وخالقه .. كلهم ، على اختلاف اتجاهاتهم ، يجمعون على الموقف الواحد الذي يصدرون عنه والذي قلنا من قبل انه ينبثق عن الحقد والتقاتل والصراع .. وكلهم يتشبثون—في نظرتهم لقضية القدر والحرية—بذات المنظار الذي يصوّر الكون وما فيه من خلائق ، وما بين خلائقه من علاقات ، فوضى أبدية لا تنتهي إلى قاعدة ، ولا يقر لها قرار ...

* * *

لقد تكلمنا في أبحاث أخرى [٣] عن انعكاس أزمة الحضارة الغربية هذه على مساحات واسعة من الفكر والفن الغربيين ، واليوم نكون قد استعرضنا انعكاسها على قطاع من أهم القطاعات الفنية والفكرية : المسرح . وها نحن نرى بأم أعيننا واقع هذه الحضارة المريض ، المرهق ، المكدود .. بشهادة خيرة فنانيها ، وذلك ما تعلمنا إياه رحلتنا عبر المسرح المعاصر .. ان الحضارة الغربية تجتاز أزمة حادّة ، وتلفها فوضى رهيبة لا بدء لها ولا انتهاء .. أزمة في العمل وأزمة في الفكر ، أزمة في الحياة وأزمة في التجريد ، أزمة في الواقع وأزمة في التصور ، أزمة في السلوك وأزمة في الخيال .. كل ما هنالك – في واقع هذه الحضارة ، أو في تصور أبنائها – مأزوم : الإنسان ،المجتمع ،العالم ، الكون ، والعلاقات بين الإنسان والقوى الأخرى ..

●●●

ولن يخلص الإنسان المعاصر من الأزمة التي تحاصره في كل مكان ، والفوضى التي تلف بدوامتها واقعه وفكره .. إلاّ نور يتنزل من السماء ، ينصب من فوق على الظلمات التي يتخبط فيها ، فينير له الطريق ، ويعطي لسعيه وكدحه جدوى ، ولحياته ووجوده في هذا العالم أملاً ومصيراً .. ولن تتأتى لهذا النور فاعليته الحقة ، في عملية التحويل الحضاري ،

---

(٣) انظر كتابي (في النقد الاسلامي المعاصر) و(تهافت العلمانية) للمؤلف .

إلا بأن تتسلم قيادة البشرية – عملياً – زعامة صالحة تقبض على الدفّة ، وتندفع بمركب البشرية ، الذي تقاذفته الرياح والأمواج قروناً طويلة ، صوب شاطىء الأمن والسلام .
هنالك تعود للإنسان المشتت وحدة ذاته، وتماسك شخصيته ، وتوحّده الكامل بين العقل والضمير ، والروح والوجدان ، والسلوك والتصور ، والجسد والفؤاد . . ويحصل على النقاء والبراءة اللتين حجبهما عنه دنس كثيف أحاط به من كل مكان . . ويجد الحيارى والضائعون أمنهم وسعادتهم من جديد ، مبتعدين عما كان يتربص بهم من دمار ذاتي وعشق للفناء ، وسط عالم غدت القيم فيه حطاماً ، وتأرجحت مبادؤه ومعتقداته على أرضيّة قلقة لا يقر لها قرار . . ويزول الشعور بالقلق الذي يتآكل الإنسان من الداخل . . قلق على الوجود ، وقلق على المصير . . ويزول الحصار الذي يحيط الإنسان بالغربة ويدفعه إلى اللاانتماء . .

وهنالك تجد كفة الحياة المادية ما يوازنها من قيم الروح والوجدان . . ويجد السعي المجنون لتوفير أسباب الراحة والمتعة والاستكثار من أدوات الزينة والترف ، ما يقابله من أهداف وأشواق ، تفقد الحياة الإنسانية بدونها شكلها ومذاقها ومبررات تميّزها عن عالم الحيوان . . عالم النمل والنحل الذي تنصب كل جهوده على الاستكثار المادي وضمان الأيام القادمة . . وهنالك تجد الآلية التي تحاصر الحياة المعاصرة من

أقطارها الأربع ، اليد العاقلة المؤمنة الطموحة التي تعرف كيف توجهها ، لا لاستعباد الإنسان وسحق تفرّده وتميزه ، ولكن لتعميق حرّيته ، وحماية هذا التفرّد والتميّز .. وتتهاوى الجدران الصماء التي تعزل الإنسان عن الإنسان ، وتزول الأسلاك الشائكة التي تحيط بكل واحد منا ، تمنعه من العبور لمصافحة الآخرين والتعاطف معهم .. تتهاوى وتزول كل العوائق التي مارست – لقرون طويلة – سلطة الفصل بين الناس ، وتحطيم علاقاتهم ، وتجريد وسائل اتصالهم من مضامينها : فيعود للغة – حينئذ – دورها ، وللمواضعات والأعراف القائمة على هدي الله إيجابيتها وقدرتها على وصال الناس بعضهم ببعض .. ويعود الإنسان إلى عالمه الذي نفاه زمناً طويلاً .. يعود أكثر تفهماً وأشد انسجاماً مع خلائق هذا العالم وموجوداته .. فلا يبقى ثمة إنسان معزول ، وحيد ، محاصر ، بعيد عن الآخرين ، منفي من العالم الذي يعيش فيه .

وهنالك لا يبقى ثمة مبرر هدّام للحرب والرعب والدمار ، والرغبة الجماعية في الافناء ، تلك الأمور المعلقة في السماء الدنيا لعالمنا المعاصر .. ولا يستقبل العالم أجيالاً من المأزومين المتعبين الذين يسري الرعب في خلاياهم ويأخذ التهافت بكيانهم ، ويتكاثف الغبش والضباب تجاه رؤيتهم للأشياء فيمحوها .. يزول هذا الدمار وهذا الرعب الذي ينبثق دائماً عن رغبات تافهة ، أو إرادات تسعى إلى التألّه في الأرض

واستعباد البشرية من دون الله ، والذي تنفذه قوى أرضية وتكتلات تلتزم الماكيافللية في تخطيطها لمصير العالم .. ومن ثم يعود للناس والأمم والشعوب أمنها وسلامها الذي طالما حلمت به في ظل القنابل التي ظلت تتساقط على رؤوسها أجيالاً بعد أجيال .

كل أزمات العصر ومآسيه تزول .. ابتداء من أعمق أعماق الإنسان ، وحتى أكثر العلاقات الاجتماعية عمومية وشمولاً . أما أزمات الفكر المعاصر فسوف تغادر أعشاشها المظلمة في الضمائر والأذهان ، بمجرد أن يتبصر الناس بالنور الذي جاءهم من خالق السماوات والأرض ، ومبدع الإنسان والحياة . ان هذا النور ، أو هذا الدين ، يفعل – يوم يأخذ به الناس – فعلاً معجزاً عجيباً في إزالة كل تصور لا يقوم على أساس ، وفي تطهير الأذهان والضمائر والنفوس من كل تعلّق باطل بفكرة مزيّفة ،أو صورة كاذبة ، أو وهم نفسي خدّاع ..وهل يكون للموت –بعد هذا– تلك الصورة المحزنة ، المجنونة ، التي قلب بها المعاصرون مبررات الحياة والموت رأساً على عقب ؟ الموت الذي هو ليس سوى نقلة ، بسيطة عابرة ، يتقدم بعدها الإنسان إلى حسابه العادل لينال ما قدمته يداه من عمل على الأرض .. ومن ثم فالحياة الدنيا هي الفرصة الإيجابية القائمة أساساً على الجدوى والأمل والسعي الذي لا سبيل إلى ضياعه .. ؟

obeikandi.com

وهل يكون ــ بعد هذا ــ ثمة فوضى تعم الكون ، وغرابة تبعد العالم عن أفهام الناس ومدركاتهم ، ولامعقولية مذهلة تنأى بمعطياتهم عن التصديق والالتزام الجاد ؟ أبداً . . فما دام خالقهم العظيم قد بيّن لهم مبررات وجودهم ومصائرهم ، وحكمة وضعهم في الكون في تلك المواضع التي وجدوا فيها . . فلن يبقى ثمة تصور خاطىء ، مريض ، يسعى إلى أن يلف الكون برؤياه اللامعقولة ، المترعة بالحس العبثي ، وبالضباب . .

ثم هل يكون ــ بعد هذا ــ مبرر للصراع والحقد والتقاتل بين الإنسان والقوى التي لا تدركها الأبصار؟ وهل يكون ثمة أساس معقول للحقد والنقمة المتبادلتين بين الله والإنسان ، ولوضع قدر الإنسان في موضع الحرب مع قدر الله ؟ ! أبداً . . فما دام الإنسان يتبصّر بنور الله الذي يشع على صفحات الكون ، ويلقي أضواءه على طبيعة العلاقة بين الله وخلائقه.. فسوف يرى هذا الإنسان ان إرادته ليست سوى امتداد لقدر الله ، وانهما في المدى البعيد والقريب منسجمتان متوافقتان . . وان القدر يعني ، فيما يعني ، اليد التي يمدّها الله سبحانه إلى الإنسان في ساعات يأسه وتخبطه وحيرته لترفعه إلى آفاق الأمل ، وتبصّره بالطريق الذي يجب أن يسلكه صوب مصيره . . وإن الإنسان أكرم عند الله من أن تقف حريته ، عاجزة ، إزاء ما يحيط بها من قيود البيئة والطبيعة ، لأن هذه الحرية لا تستمد من معينها الذاتي فحسب ، ولا من

مواضعاتها الاجتماعية فحسب ، بل إنها تستمد كذلك من المعين الأكبر .. معين الله الذي يحرر الناس ، ويعطيهم اختيارهم الحقيقي العميق .. وفوق هذا وذاك ، فليس البشر ، بوضعهم هــذا في الكون ، مجرد قطع متراصة ، بعضها إلى جوار بعض ، منبتة الجذور من أعماق العالم ، لا تصلها به صلة ، ولا تربطها بالكون من حولها رابطة .. ان الأمر على العكس من هذا ، فالإنسان يعمل في انسجام وتكامل كوني وفق ما يحيط به من قوى مرئية وغير مرئية ، وضمن النسيج المعقد المتشابك لهذا الكون الذي ترتبط مصائر خلائقه ، وتتوحد ، في المدى البعيد ..

وستظل البشرية ، تعاني أزمات عصرها وفكرها .. وتطلع على التاريخ بحضارات تحمل في بذورها عناصر التحطم والفناء .. ستظل البشرية تدور بمعطياتها وحضاراتها في الحلقة المفرغة التي ليس للخروج منهـــا ، من سبيل .. وهي خــلال ذلك كله تذهب على الناس فرص أعمارهم وجهودهم ، وتدمّر عليهم أمنهم الذاتي وسلامهم ، وتسحق آمالهم ومصائرهم ، وتعبث بوجودهم الفردي والجماعي ، وتدفعهم دفعاً إلى الدوّامة القاسية ، التي فحصنا بعض جوانبها ، والتي تطحن في أعماقها الجميع ..

ستظل البشرية تعاني ، وتزداد أزماتها تعقيداً وإرهاقاً ،

يوماً بعد يوم ، حتى يتأتى لها – يوماً ما – ان تؤمن بالنور الذي تنزل من السماء ، وانصب ، عبر فترات من التاريخ ، على الظلمات التي ظلت البشرية تتخبط فيها .. وآنذاك سيتضح الطريق أمامها .. مستقيماً عدلاً .. صوب هدفه العظيم .. ومرة أخرى ، لن تتأتى لهذا النور فاعليته الحقة في عملية الانقاذ الحاسم ، إلا بأن تتسلم القيادة العملية للبشرية : زعامة صالحة ، تقبض على الدفة بيد مؤمنة قوية ، وتندفع بالمركب الذي تقاذفته الرياح والأمواج قروناً طويلة ، إلى شاطىء الأمن والسلام والتحرر من الخوف والضياع في لجة العالم ، وخضم الكون ..

رجالٌ يؤمنون بالله ، واليوم الآخر .

ويدينون دين الحق ..

ولا يريدون علوّاً في الأرض ،

ولا فساداً ...

obeikandi.com